سورة الفرقان

مكية، وهي مع البسملة ثمانٍ وسبعون آية وستة ركوعات

زمن نـــزولها: سورة "الفرقان" مكية عند معظم المفسرين، حيث نـــزلت قبل الهجرة (البحر المحيط). قال القرطبي في تفسيره عن ابن عباس وقتادة أن ثلاث آيات منها نـــزلت بالمدينة، وهي قول الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ إلى قوله تعالى ﴿وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (القرطبي).. أي الآيات رقم ٦٨ إلى ٧٠ عندهم، والآيات رقم ٦٩ إلى ٧١ عندنا إذ نعتبر البسملة آية من كل سورة.

وليس عندهم أي دليل على كون هذه الآيات مدَنيةً إلا قولهم إن الله تعالى قد نهى في هذه الآيات عن قتل النفس والفاحشة، وبما أن التعاليم المفصلة عما يتعلق بالتمدن والمعاشرة والسياسة إنما نـــزلت بالمدينة، فثبت أنها آيات مدَنية.

ولكن قولهم هذا ليس بدليل، إذ كان الصحابة عاملين بهذا التعليم أيضًا وهم في مكة. إذ تدل سيرهم وسلوكهم صراحة على أن هذه الأحكام كانت في حسبانهم في تلك الفترة أيضًا. فليس من المعقول أبدًا أن نعدّ هذه الآيات مدَنيّة لمجرد أنها تنهى عن القتل والفاحشة.

إن المستشرقين المسيحيين أيضا قد عدّوا هذه السورة مكية، ولكنهم يقولون إنها نـــزلت في أوائل البعثة النبوة (تفسير القرآن ويري مجلد ٣ صفحة ٢٠٧).

ولكن قول "ويري" هذا غير صحيح، إذ يحتج على قوله بأن هذه السورة لا تتحدث عن المعارضة الشديدة من قبل الكفار. وحجته مرفوضة لأن هناك سورًا مَدَنية ليس فيها أي ذكر للكفار، فهل نستنتج من ذلك أنه لم تقع أي حرب ضد الكفار في المدينة. الحق أن محتوى هذه السورة أيضًا يدل على أنها مكية إذ تعلن صراحة أن الكافرين لن يرضوا بدين محمد رسول الله ﷺ (انظر الآية رقم ٥٣). وهذا

يعني أن الشجار مع الكفار كان قد بدأ عندئذ. فبوسعنا القول إن هذه السورة مما نـــزل بين السنة الثانية والثالثة من البعثة.

وقد روى البخاري ومسلم ومالك والشافعي وابن حبان والبيهقي عن عمر بن الخطاب ﷺ يقول: "سمعتُ هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ، فاستمعتُ لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يُقْرِئْنِيها رسولُ الله ﷺ، فكدتُ أساوره في الصلاة. فتصبّرتُ حتى سلّم. فلبّبتُه بردائه، فقلت: من أقرأَك هذه السورة التي سمعتُك تقرأ؟ قال: أقرأَنيها رسول الله ﷺ. فقلتُ: كذبتَ، فإن رسول الله ﷺ قد أقرأَنيها على غير ما قرأتَ. فانطلقتُ به أقوده إلى رسول الله ﷺ. فقلتُ إني سمعتُ هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تُقرئْنيها. فقال رسول الله ﷺ: أَرْسِلْه. اقْرَأْ يا هشام. فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ. فقال رسول الله ﷺ: كذلك أُنَـــزلت. ثم قال: اقرأْ يا عمرُ. فقرأتُ القراءة التي أقرأني. فقال رسول الله ﷺ: كذلك أُنـــزلتْ. إن هذا القرآن أُنزلَ على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه." (البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب أُنـــزل القرآن على سبعة أحرف، ومسلم: كتاب فضائل القرآن، باب بيان القرآن أُنزل على سبعة أحرف، وتفسير فتح البيان مجلد ٦ ص ٣٥٤).

لقد تبين من هنا أن القراءات – التي يؤسس عليها المستشرقون والقسيسون مطاعنهم في القرآن الكريم بشكل كبير – ليست إلا الفروق الموجودة بين لهجات شتى القبائل العربية. وقد كثرت هذه الفروق في اللهجات في اللغة العربية بحكم كون الشعب العربي محاصرًا بين العديد من الشعوب التي لها لغات مستقلة، إذ كانت حدود الجزيرة العربية تتصل بالحبشة من ناحية، وبفارس من ناحية أخرى، وكانت لهم علاقات باليهود والآراميين من ناحية ثالثة، وكانت لهم صلات بالهند من ناحية رابعة؛ فكان من المحتم أن تتأثر وتتفاعل لغة قوم تحاصرهم كل هذه الشعوب ذوات اللغات المختلفة من شتى الجهات. فكانت النتيجة أن بعض العرب كانوا لا ينطقون بعض الحروف نطقًا سليمًا. فمثلا كان بعضهم لا ينطق "ر" بل ينطقه "ل". أو إذا وجدوا بعض الصعوبة في نطق لفظ استخدموا مكانه لفظًا آخر. والواضح أن المؤلف إذا أجاز قراءة لفظ مكان لفظ في كتابه سهل على جميع القوم

قراءة الكتاب، ولكنه إذا لم يجز ذلك سهلت قراءة كتابه على بعض وصعبت على بعض. أما إذا قرؤوا كتابه بأسلوبهم فإنما يفعلون ذلك باختيارهم وليس بإذن من المؤلف.

ولقد أوجد القرآن الكريم حلاً لهذه المعضلة حيث اختار حروفًا أو ألفاظًا بديلة نظرًا إلى الاختلافات الموجودة في لهجات القبائل العربية المختلفة، مما مكّن جميع العرب من قراءة القرآن الكريم بيسر وسهولة. وبما أنه كان أسلوبًا جديدا نادرًا لم يفطن إليه أحد قبل القرآن الكريم، فشقّ ذلك على الناس في أول الأمر، فكان كل فريق يظن أن القرآن الكريم قد نـــزل بلهجة قبيلته، وإذا قام أحد بقراءة آية من القرآن الكريم بحسب لغة قبيلته ولهجتها بشيء من التغيير في الحرف أو اللفظ، ظن الآخرون أنه يحرّف القرآن الكريم، فكان الرسول ﷺ يضطر لشرح الأمر لهم مرة بعد أخرى. ولكن لما فهم الناس الأمر جيدًا أدركوا أنه لا حرج في هذا الأسلوب، إذ لا يؤدي إلى تغيير في المعنى، بل يؤدي في بعض الأحيان إلى توسيع معاني القرآن الكريم، ويساعد كلَّ قبيلة على قراءة هذا الكتاب.

لقد كتب بعض الأدباء العرب المشاهير أنه كان لملكٍ وزير لا يستطيع نطق الراء لاختلاف لهجة قبيلته، وكان الملك لا يعلم ذلك. فشكاه أحدهم للملك قائلا: إن هذا الوزير لا يعرف حتى نطق الراء بل يحوّلها لامًا. فقال الملك: لا علم لي بذلك، ولكن ما دمتم قد أخبرتموني فسوف أفحص الأمر لأعرف مدى صدقكم. فدعا وزيره وأمره بأن يملي على سكرتيره الأمر التالي:

"أمر أمير الأمراء أن يُحفَر البئر في الطريق ليشرب منه الماءَ الصادرُ والواردُ".

لقد تكرر حرف الراء في هذه الجملة كثيرًا. ولكن الوزير كان عالمًا شديد الذكاء، فلم يلبث أن أملى على سكرتيره ما يلي:

"حكَم حاكمُ الحكّام أن يُقلَب القليبُ في السبيل لينتفع منه الصادي والبادي".

فتحاشيًا لنطق الراء استعمل كلمات مرادفة في المعنى مكان الكلمات التي فيها الراء، بدون أن يغير المعنى الذي أراده الملك. فتأثر الملك بذكائه الخارق، وقال للواشي: لقد شكوته إلي لأطرده من منصبه، ولكنه قد ازداد رفعة عندي، لأنه

بمجرد أن سمع كلامي صاغه في جملة خالية من حرف الراء، بدون أن يغير المفهوم الذي قصدته. وهذا دليل على عظيم علمه وذكائه، وهذا يوجب عليّ أن أقدّره أكثر من ذي قبل.

فبوسع المرء أن يدرك من ذلك بسهولة أنه كما كان من الصعب على الوزير نطق الراء فكان يحوّلها لامًا، كذلك كان هناك اختلاف بين لهجات القبائل العربية المختلفة، فكان بعضهم لا يحسنون نطق بعض الحروف المعينة، فقضى الرسول ﷺ على هذه الاختلافات كلها بسماحه لهم بقراءة القرآن الكريم بقراءات مختلفة، وهكذا صار القرآن الكريم كتابًا عالميًا يستطيع كافة العرب ذوي اللهجات المختلفة قراءته بسهولة، وكان بوسعهم أن يقولوا إن القرآن الكريم قد نـــزل بلغتنا. ومن أجل ذلك قال النبي ﷺ "اقرؤوا ما تيسَّرَ لكم".. أي اقْرَءوه بحسب اللهجة الرائجة عندكم التي تسهل على لسانكم. لو كانت القراءة بتغيير بعض الحروف وبعض الحركات تغيّر معنى القرآن الكريم لما سمح لهم النبي ﷺ بقراءته باللهجة التي هي سهلة عليهم. إن هذه الجملة توضح بجلاء أن القراءات المختلفة تتعلق بالنطق فقط لا بالمعاني. فإذا كانت هناك قراءات فإنها توسع دائرة النطق فقط دون أن تغير المعنى الحقيقي على الإطلاق، بل يبقى الحكم الأصلي في مكانه كما يريده القرآن الكريم.

الترتيب والترابط: تكمن الصلة القريبة لهذه السورة بسورة "النور" في أن الله تعالى قد تحدث في آخر سورة "النور" عن النظام الإسلامي، موضحًا أن بعض الناس لا يعرفون حقيقة هذا النظام ويخافون من نظام الكافرين الذي قد أصبح منخورًا من داخله، وإن خوفهم وضعفهم هذا لن ينقذهم من الهلاك بل سيدفعهم إلى الدمار أكثر. أما سورة "الفرقان" فقد بين الله فيها سبب ذلك، فقال إن القرآن الكريم يعلن أنه جاء نذيرًا للعالمين، وأن الذين يخالفون تعاليمه إنما يخالفون الطبيعة؛ إذ إن تعاليمه مطابقة لقانون الفطرة والطبيعة، فمخالفة التعاليم القرآنية ليست مخالفة للأحكام السماوية فحسب، بل هي مخالفة للقوانين الطبيعية أيضًا؛ لذا فلا يمكن لأحد من أتباع أي دين وأهل أي قطر أن يصمد أمام من يؤمن بالقرآن

الكريم ويعمل به. إذًا، فالذين يخافون نظام الكافرين إنما يخافون الوهم والخيال، إذ لا يتأسس خوفهم على الحقيقة مطلقًا.

هذا فيما يتعلق بالصلة القريبة بين السورتين. أما علاقة هذه السورة بالتي قبلها من حيث مضمونهما الشامل فتكمن في أن الله تعالى قد ركز في سورة "النور" على أهمية إصلاح أخلاق القوم وتنظيم العائلة وتنظيم القوم، مبينًا أنه لا بد للنجاح من التركيز الخاص على تنظيم القوم وتفضيل حقوق الجماعة على حقوق الفرد، إضافةً إلى إصلاح عقائد القوم وأفكارهم وأخلاقهم. وهذا الموضوع نفسه تتناوله سورة "الفرقان"، ولكنها تبين كيف تستمر المواجهة بين الخير والشر بشكل خاص، وكأن هذه السورة تعقد المقارنة بين رقي الإيمان ورقي الكفر، معتبرة إياهما نهرين جاريين متحاذيين. كما بين الله تعالى في هذه السورة حال رقي الإسلام وانحطاطه حتى زمن المسيح الموعود عليه السلام، وهكذا ذكر أخبار رقي المسلمين إلى جانب أخبار الرقي الزماني أيضًا.

ملخص محتوى هذه السورة: لقد بين الله تعالى في هذه السورة أن هذا القرآن سيف ذو حدّين، فهو رحمة للمؤمنين وإنذار للكافرين، لأن منـــزِّله مالكُ السماوات والأرض دون شراكة شريك. وكل ذرة في الكون من خلقه، لذلك فإن وحيه يكون مطابقًا للطبيعة، وأن إنكار وحيه تعالى أو إقراره ليس مجرد إنكار أو إقرار للوحي فحسب، بل هو إنكار أو إقرار لقانون الطبيعة أيضًا، إذ ما دام مالكُ الشرع وخالقُ الطبيعة واحدًا فلا يمكن أن يكون بينهما اختلاف. (الآيات ١-٤)

إن معارضي القرآن الكريم حين يرون فضله يقولون مضطرين إن هذا الكلام ليس من شخص واحد، بل قد لفّقه مجموعة من الناس، أو يقولون إنه قد سرقه من صحف الأولين. (الآيتان ٥-٦)

ولكن ادعاءهم هذا باطل، إذ لو كان القرآن الكريم من اختراع بشر لما اتسم بسمات ومزايا تفوق قدرات البشر. ولو كان سرقةً من الصحف الأولى لوجب أن تتوافر مزاياه في الكتب السابقة أيضًا. (الآية ٧)

ويقول بعض المعارضين إن محمدًا (ﷺ) بشرٌ مثلنا، يأكل كما نأكل ويشرب كما نشرب، ويخالط الناس. ولو أراد الله تعالى أن ينـــزل هذا الكلام، فلِمَ لم يُنـــزل ملاكًا، أو لِمَ لم يُنـــزل مع محمد كنـــزًا، أو لم لم يُعطه البساتين التي يأكل من ثمراها؟ بينما يقول البعض الآخر: لماذا تتّبعون رجلاً مفتريًا؟ فانظر كيف يثيرون أمورًا متناقضة، ولا يتمسكون بموقف واحد. (الآيات ٨-١٠)

إن الله تعالى لقادر على أن يعطيك، يا محمد، ما هو أفضل من البساتين، وسيعطيك حتمًا؛ ولكن هؤلاء القوم ينكرون تلك الساعة ولا ينتظرونها، ولكنها إذا جاءت فسيستولي عليهم الذعر واليأس. (الآيات ١١-١٥)

هل البستان الذي يطالبونك به أفضل من البستان الذي سيعطى للمسلمين؟ كلا. (الآيتان ١٦-١٧)

عندما تُسأل آلهتهم يوم القيامة فستنكر كل ما يعزون إليها من الأمور. (الآيات ١٨-٢٠)

الحق أن اعتراضهم ليس بذي قيمة. أليست كل أمة تدعي بمجيء أنبياء فيها؟ ألم يكن هؤلاء الأنبياء بشرًا محتاجين إلى كل ما يحتاج إليه البشر؟ والحق أن هؤلاء مصابون بالزهو بأن الناس يؤيّدونهم وأن بوسعهم أن يخدعوهم. والحق أن أقوالهم ليست إلا هراء في هراء. (الآية: ٢١)

ويقول بعضهم لم لا تنـــزل الملائكة علينا، أو لم لا يكلّمنا ربنا؟ الحق أنهم مصابون بالغرور والكبرياء، وأنهم حين يرون الملائكة يرون أيام العذاب بما اقترفوا من الأعمال. أما المؤمنون فسيرون الملائكة مسرورين (الآيات ٢٢-٢٥)

ستنـــزل الملائكة في يوم من الأيام يقينًا، ولكن ذلك اليوم يكون يوم الجزاء، يوم يشهد الرسول أن الناس قد رفضوا القانونين؛ قانون الطبيعة وقانون الشرع الرباني. (الآيات ٢٦-٣١)

وهذا ليس ببدع، بل قد تعرض جميع الأنبياء للإنكار. (الآية رقم ٣٢)

ويقول بعضهم: لِمَ لم ينـــزل القرآن دفعةً واحدة؟ فليعترضوا كما يحلو لهم، فعندنا جواب كل اعتراض. إنه لا بأس بالاعتراض، ولكن البأس كل البأس أن يثير المرء اعتراضًا يسبب له الخزي والندامة أمام الله تعالى. (الآيات ٣٣-٣٥)

لقد جاء قبلك أنبياء كثيرون، وقد هلك أعداؤهم. (الآيات ٣٦-٤١)

إنهم يستهزئون بك أيضًا، وكان هذا لزامًا، لأن قلوبهم قد خلت من المُثل العليا. (الآيات ٤٢-٤٥)

ليتهم يرون أن الله تعالى يكتب للأمم الازدهار ثم الانحطاط، وتأتي عليها ساعات من الليل بعد ساعات من النهار. فلم لا يدركون من ذلك أن زوالهم قد حان، وأن أوان غلبة المسلمين قد أتى. (الآيات ٤٦-٥٠)

إن القرآن الكريم لا يعرض عليهم إلا ما فيه خيرهم، ولا يطالبهم بأي شيء، فلم يصرّون على الإنكار. (الآية:٥١)

إن أكبر ما يتضايقون منه هو مجيء نبي من العرب. حسنًا، فليدلّوا على مكان إذا بُعث فيه نبي آمن به الناس كلهم؟ فهل يريدون أن يأتي نبي في كل قوم في وقت واحد؟ ولو حصل ذلك لاشتد الخلاف بين الناس أكثر. فلا تكترث لقولهم، واستمرّ في تبليغ رسالة القرآن. (الآيتان ٥٢-٥٣)

أو لم يروا أن الله تعالى قد أجرى نهرين أحدهما حلوٌ، والآخر مالح، ومع ذلك لا يلتقيان. كذلك سيظلّ هذان المنهجان مستمرّين متحاذيين، وسيظلّ الناس يميّزون بين الحلو والمالح. (الآية:٥٤)

أَوَلا يرون أن الإنسان قد خُلق من الماء، كذلك فإن خلقه الروحاني أيضًا بحاجة إلى الماء. (الآية ٥٥)

إنهم معتادون على الشرك والوثنية، وما عليك إلا النصح والتبليغ بدون أجر، والتوكل على الله وحده. (الآيات ٥٦-٦٠)

عندما يقال لهم أن يعبدوا الله الأحد الذي يدل الكون كله على وحدانيته، يكفرون. (الآية ٦١)

أوَلا يرون أن هناك نظامًا ماديًّا يتلقون منه الضياء والحياة؛ كذلك يتناوب الخير والشر في الدنيا. فإن المؤمنين يقيمون السلام في الدنيا دائمًا، ويردّون على الشرور بالدعاء، ويعبدون الله تعالى ويدعونه في جوف الليل، وينفقون أموالهم لإصلاح الدنيا بدون رياء. ولا يشركون، ولا يقتلون ولا يزنون؛ ومن فعل ذلك نال عقابه. بيد أن إله الإسلام يقبل التوبة، وعلامة التوبة الصادقة أن المرء يوفَّق لفعل الخيرات. (الآيات ٦٢-٧٢)

إنما المؤمنون الذين لا يكذبون ولا يرغبون في اللغو، وتستولي عليهم خشية الله تعالى بسماع كلامه، ويدعونه تعالى لإصلاح أزواجهم وأولادهم، ولا يريدون الإمامة والقيادة فحسب، بل يريدون أن يكونوا أئمة للصالحين. هؤلاء هم الذين سيرثون نعم الله تعالى التي لا انقطاع لها. (الآيات ٧٣-٧٧)

اعلموا أن الله تعالى قد خلقكم لغاية معينة، وإذا لم تحققوا تلك الغاية فلن تستحقّوا رحمته تعالى. (الآية ٧٨)